

الوافي في الوفيات

كان فرد زمانه في بابه وإمام الشعر في أضرابه أول من فتح ذلك الباب أبو نواس وجاء ابن حجاج بعده بالطم والرم وأكثر فأحسن واستوعب الإجابة فأمعن .
وأنا أراه ممن يطلق عليه اسم شاعر ؛ لأنه أجاد في المدح والهجو والثناء والغزل والوصف والأدب وسائر أنواع الشعر لكنه في المجون إمامٌ وكل من أتى بعده بشيء من ذلك فهو له غلام ولما أتى ابن الهبارية المذكور في المحمدين بعده وأراد يسلك طريقة قصر وكان الأليق به الإمساك عن مجاراته لو تبصر .

وكان حسن الهيئة واللبس والسمت والوقار والسكينة مدح ابن حجاج الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء . وديوانه كبير إلى الغاية أكثر ما يوجد في عشر مجلدات ورأيته كثيراً في مجلدين وفي مجلد واحد .
تولى حسة بغداد مرات وأقام بها مدة يقال إنه عزل بأبي سعيد الإصطخري الفقيه الشافعي . قلت : وهذا لا يستقيم فإن أبا سعيد توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وابن حجاج توفي سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة بالنيل وحمل إلى بغداد ودفن عند مشهد موسى بن جعفر Bه وأوصى أن يدفن عند رجليه ويكتب على قبره : " وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالصيد " . وكان من كبار الشيعة .

ورآه أحمد بن الخازن في المنام بعد موته فسأله عن حاله فأنشده : من مجزوء الرجز .
أفسد حسن مذهبي ... في الشعر سوء مذهبي .
وحملي الجد على ... ظهر حصان اللعب .
لم يرض مولاي على ... سبي أصحاب النبي .
وقال لي ويلك يا ... أحقق لم لم تتب .
من سب قومٍ من رجا ... ولاء هم لم يخب .
رمت الرضا جهلاً بما ... أصلاك ذات اللهب .
قلت : أشهد أن هذا الشعر نفسه كأنه قاله حياً .
ولما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدة من جملتها : من المتقارب .
نعوه على حسن ظني به ... فإِ ماذا نعى الناعيان .
رضيع ولاءٍ له شعبة ... من القلب مثل رضيع اللبان .
وما كنت أحسب أن الزمان ... يفل مضارب ذاك اللسان .
بكيته للشرد السائرات ... تفتق ألفاظها بالمعاني .

ليبك الزمان طويلاً عليك ... فقد كنت خفة روح الزمان .

وقد جمع أخباره أبو بكر محمد بن عبد الله بن حمدون في مجلدة ؛ ذكر في أولها قال : حدثني صديقٌ لي قال : رأيت عند بعض الوراقين جزءاً من هذا الشعر فيه خمسون ورقة فسألته أن يبعينه بما شاء فامتنع وقال لي هذا الجزء في دكاني بمنزلة جارية طيبة الغناء مليحة الوجه في القيان يكثره حرفاء لي مجانٌ طيابٌ إذا اجتمعوا للشرب بأجرة قد اتفقنا عليها فأستثنى عليهم بعد الأجرة أن يتنقصوا لي من مأكلمهم ومشروبهم وفاكهتهم بما يحمل إلي مع الجزء إذا ردوه .

وقال : بلغني عن يقع إليه من طبقات الناس في الأمصار والبلدان البعيدة أنهم يتهمون أبا عبد الله بسخفٍ في دينه ومروءته وضعفٍ عهدٍ في مودته وأمانته وتسلمته على الأعراض برويته وبديخته فإذا أخبرهم من شاهده عما فيه من الفضل والحرية والديانة والمروءة والخفر والحياء والتعلق بالخير والتبري من الشر والرجوع في ذلك إلى أبوته الجليلة وقديمه المشهور وبيته المعروف لم يصدقوه وشكوا في خبره .

وقال ابن حجاج : أعانني على مذهبي أن أبي كان أباغ مستغلات له متصلة بدوره فابتاعها قومٌ نقضوها وبنوها خاناتٍ أسكنوها الشحاذين والغرباء السفلى وذوي العاهات المكديين وكل دلوك وقطعي من الخلد والربيدية فكنت أسمع في ليالي الصيف خاصةً مشاتمات رجالهم ونسائهم فوق السطوح ومعى دواةٌ وبياضٌ أثبت ما أسمعته فإذا مر بي ما لا أفهمه أثبتته على لفظه واستدعيت من غدٍ من قد سمعت منه ذلك وأنا عارف بلغاتهم لأنهم جيرانني فأسأله عن التفسير وأكتبه ولم أزل أصمعي تلك البادية مدة .

وقال في سخف شعره : من الوافر .

أيا مولاي هزلي تحت جدي ... وتحت الفضة انحرف اللحم .

وشعري سخفه لا بد منه ... فقد طابنا وزال الاحتشام .

وهل دارٌ تكون بلا كنيفٍ ... يكون لعاقلي فيها مقام